



• باسم الكندي

التَّهْمِيَّة رِحْلَةُ فِي الْمَفْهُوم وَالنَّظَرِيَّات

ظَلَّت التَّهْمِيَّة هَاجِسًا يُورِّقُ الْكَثِيرِينَ مِنْ دَوْلِ الْعَالَمِ رَغْمَ أَنَّ مَفْهُومَ التَّهْمِيَّةِ مِثْلَمَا يَذْكَرُ عَبْدُ السَّلَامِ نَوِيرُ أَسَاتِذِ الْعُلُومِ السِّيَاسِيَّةِ بِجَامِعَةِ أُسَيْوُطِ فِي مَقَالِهِ الْمُنَشُورِ فِي مَجَلَّةِ التَّفَاهِمِ بِعِنْوَانِ (نَظَرِيَّاتِ التَّهْمِيَّةِ وَأَسْبَابِ التَّأَزُّمِ دَرَاةً نَقْدِيَّةً) بِأَنَّ هَذَا الْمَفْهُومَ لَمْ يُسْتَحْدَمْ فِي عَهْدِ الْعَهْدِ الْاِقْتِصَادِيَّ أَدَمِ سَمِيثٍ إِلَّا عَلَى سَبِيلِ الْاِسْتِثْنَاءِ، فَقَدْ كَانَ يَتِمُّ اسْتِخْدَامُ مِصْطَلَحَاتِ كَالْتَقَدِّمِ الْمَادِي وَالتَّقَدُّمِ الْاِقْتِصَادِيَّ بَدَايَةً ثُمَّ التَّحْدِيثِ وَالتَّصْنِيْعِ لَاحِقًا، وَلَقَدْ بَدَأَ التَّنْظِيرُ لِهَذَا الْمَفْهُومِ مِنْذُ أَوَاسِطِ ثَلَاثِيْنِيَّاتِ الْقَرْنِ الْمَاضِي وَلَكِنْ ذَاعَ صَيْتُهُ أَكْثَرَ بَعْدَ الْحَرْبِ الْعَالَمِيَّةِ الثَّانِيَّةِ نَتِيْجَةً لظُهُورِ مَوْجَاتِ التَّحَرُّرِ الْوَطْنِيِّ لِلْبُلْدَانِ الْمُسْتَقْلَةِ حَدِيثًا؛

مرحلة متعاقبة تكون أفضل من سابقتها وهي تمثل انعكاساً لنظرية التطور لتشارلز دارون التي تَلَقَّفَهَا عِدَّةٌ مِنَ الْمَفْكَرِينَ، وَقَدْ وَاجَهَتْ هَذِهِ النَّظَرِيَّاتُ انْتِقَادَاتٍ مِنْهَا صَعُوبَةٌ تَطْبِيقِيَّةً عَلَى حَالَاتٍ تَارِيخِيَّةٍ مُتَنَوِّعَةٍ كَمَا أَنَّهَا تُصَوِّرُ عَمَلِيَّةَ التَّهْمِيَّةِ بِصَفَتِهَا عَمَلِيَّةً تَدْرِيْجِيَّةً هَادِئَةً وَلَا تُقَدِّمُ أَفْكَارًا لِفَهْمِ تَحْدِيَّاتِ التَّهْمِيَّةِ وَتَتَّجَاهَلُ ظُرُوفَ الدَّوَلِ الْمُسْتَعْمَرَةِ أَيْضًا.

ب- نظريات التحديث: وترى أنَّ التَّهْمِيَّةَ مَا هِيَ إِلَّا عَمَلِيَّةٌ تَحْدِيثٌ أَيْ عَمَلِيَّةٌ تَغْيِيرٌ لِمُخْتَلَفِ نَوَاحِي الْحَيَاةِ لِمُجْتَمَعَاتِ عَنِ طَرِيقِ زِيَادَةِ الْاِنتِاجِ الْاِقْتِصَادِيَّ، وَمِمَّا يُؤْخَذُ عَلَيْهَا غَمُوضٌ بَعْضُ مَفَاهِمِهَا وَتَتَطَلَّبُ مِنَ الْمُجْتَمَعَاتِ النَّامِيَّةِ التَّخَلِّيَ عَنِ مَظَاهِرِهَا الثَّقَافِيَّةِ، كَمَا تَتَّجَاهَلُ عَامِلَ الْاِسْتِعْمَارِ وَتُشْجَعُ بِبَاءِ هَذِهِ الدَّوَلِ كَأَسْوَاقِ مُسْتَهْلِكَةٍ وَتُنَشِّرُ الثَّقَافَةَ الْغَرْبِيَّةَ فِيهَا.

ج- نظرية التبعية وتقسيم العمل: وتُفَضِّرُ أَنَّ التَّخَلْفَ لَا يُمَثِّلُ الْحَالَةَ الْأَصْلِيَّةَ لِلْمُجْتَمَعِ فِي الْعَالَمِ الثَّلَاثِ، بَلْ نَشَأَ مِنْ خِلَالِ أَسَالِيْبِ الْخُضُوعِ لِلنَّفُوذِ الرَّأْسِمَالِيِّ، بِمَعْنَى أَنَّهُ نَشَأَ تَدْرِيْجِيًّا مَعَ التَّطَوُّرِ فِي الْمَرْكَزِ الرَّأْسِمَالِيِّ الْمُتَقَدِّمِ، وَبِالرَّغْمِ مِنْ نَجَاحِ هَذِهِ النَّظَرِيَّةِ فِي تَفْسِيرِ التَّخَلْفِ وَعَوَامِلِهِ اعْتَرَاهَا بَعْضُ الْقُصُورِ لِتَرْكِيْزِهَا عَلَى دَوْرِ الْعَوَامِلِ الْخَارِجِيَّةِ وَلَمْ تَرْتَبِطْ بِالْعَوَامِلِ الْدَاخِلِيَّةِ كَمَا أَنَّهَا تَقُولُ كَلِمًا أَنْخَفَضَتْ تَبَعِيَّةَ دَوْلَةٍ مَا زَادَتْ الْقُدْرَةَ لِلتَّهْمِيَّةِ وَهَذَا لَيْسَ بِالضَّرُورَةِ وَقَعَ فَعَلًا.

- المدخل المعاصرة المرتبطة بالهولة: أدَّتْ الْعَوْلَةُ مِنْذُ ظُهُورِهَا إِلَى تَلَاشِيِ الْحُدُودِ وَالْمَسَافَاتِ وَأَصْبَحَتْ الْحَيَاةُ فِي الْعَالَمِ كَقَرِيَّةٍ صَغِيرَةٍ بِفِعْلِ التَّكْنُولُوجِيَا، صَاحَبَ ذَلِكَ ظُهُورَ نَظَرِيَّةِ النِّظَامِ الْعَالَمِيِّ الَّتِي شَمَلَتْ جَانِبًا تَفَاوُثِيًّا فِي عِلَاقَاتِ الْعَمَلِ وَالتَّفَاهِمِ الْمَشْرُوكِ إِلَّا أَنَّ هَذِهِ النَّظَرِيَّةَ أُعْتَبِرَتْ كَأَدَاةٍ لِلتَّغْرِيْبِ وَوَسِيلَةٍ لِنَشْرِ الْهَيْمَنَةِ الْأَمْرِيْكِيَّةِ، وَنَتِيْجَةً لِفِشْلِ الْأَسَالِيْبِ الْكَلَّاسِيْكِيَّةِ الْمُتَّبَعَةِ لِمُعَالَجَةِ التَّخَلْفِ فِي الدَّوَلِ الْفَقِيرَةِ بِدَأْ عِدَدٍ مِنَ الْعُلَمَاءِ مَنَاقِشَةً مَا أُطْلِقُوا عَلَيْهِ (نَهَايَةُ عَصْرِ التَّهْمِيَّةِ) وَظَهَرَ مَفْهُومُ (مَا بَعْدَ التَّهْمِيَّةِ) بِوَصْفِهِ التَّوَجُّهَ الْمَنَاحِضَ لِفِكْرِ التَّهْمِيَّةِ السَّابِقِ الَّذِي فَشَلَتْ نَظَرِيَّاتِهِ، وَفِي ظِلِّ مَا نَعِيْشُهُ الْيَوْمَ مِنْ تَدَاعِيَّاتِ جَائِحَةِ كُورُونَا نَجِدُ الْكَاتِبَ يُشِيرُ إِلَى أَنَّ فِكْرَةَ الْاِعْتِمَادِ الْمُتَبَادَلِ لَيْسَتْ صَالِحَةً فِي كُلِّ الْأَحْوَالِ، كَمَا أَنَّ حَالَةَ الْإِغْلَاقِ الَّتِي شَهِدَهَا الْعَالَمُ جَعَلَتْهُ يَوجَاهُ تَحْدِيًا كَبِيرًا لِتَوْفِيرِ الْغِذَاءِ لِلشُّعُوبِ وَاسْتِمْرَارِ هَذِهِ الْأَزْمَةِ سَيُعَمِّقُ خَطُورَةَ هَذَا الْجَانِبِ، الْأَمْرُ الَّذِي يَدْفَعُنَا إِلَى الْعَمَلِ بِجِدِّيَّةٍ لِتَحْقِيقِ الْأَمْرِ الْغِذَائِيِّ لِدِينَا أَيْضًا لِأَهْمِيَّتِهِ الْقُصْوَى.

الاجتماعي في دراسات التنمية وتزامن هذا التراجع مع تعرُّض الكثير من دول العالم النامي لأزمات ديون وفشل للأسواق؛ لارتفاع معدلات التضخم وسيطرة المستثمر الأجنبي على اقتصادها؛ حتى صارت أسيرة للمنظمات الإنمائية الدولية التي خنقتها بالديون، كما قلَّلت الدول المتقدمة معوناتهما للدول النامية مما جعل هذه الدول تحس بضخامة تأثير العوامل الخارجية على أوضاعها مما أعطاهما فرصة لمراجعة نشاطها الاقتصادي؛ فظهر من يُنادي بتقليل تدخل الحكومة في السوق بينما نادى آخرون بأن الأمر لا يتطلب ذلك بقدر ما يحتاج إلى مراجعة أساليب هذا التدخل لزيادة كفاءته، أما في التسعينيات فمعظم الدراسات الإنمائية تحوَّلت إلى تحليلات للعولة مما شتت العمل التنموي وقام بتهميشه.

- ثانيًا: التنمية، تطور المفهوم واتساع المجال: تطوَّرَ مَفْهُومُ التَّهْمِيَّةِ مِنْذُ ظُهُورِهِ، فَالْتَّهْمِيَّةُ فِي مَرِحَلَتِهَا الْأَوَّلَى كَانَتْ تَعْنِي النَّمُوَ الْاِقْتِصَادِيَّ، وَفِي السَّبْعِيْنِيَّاتِ تَمَّ تَدَشِينُ الْمَفْهُومِ الْأَوْسَعِ لِلتَّهْمِيَّةِ فِي مَرِحَلَتِهَا الثَّانِيَّةِ وَأَصْبَحَتْ تَعْنِي التَّهْمِيَّةَ الْبَشَرِيَّةَ رَغْمَ اقْتِصَارِهَا عَلَى الْجَوَانِبِ الْمَادِيَّةِ فَقَطْ وَمَعَ نَهَايَةِ الثَّمَانِيْنِيَّاتِ كَانَ هُنَاكَ تَيَارَانٍ مُخْتَلِفَانِ بِشَأْنِ التَّهْمِيَّةِ أَوْلَهُمَا رَكْزٌ عَلَى النَّمُوِ الْاِقْتِصَادِيَّ اسْتِنَادًا لِتَوَافُقِ وَاشْتِنَاقِ أَسَاسًا وَقَدْ تَبَنَّى صَنْدُوقُ النِّقْدِ الدَّوَلِيِّ وَالبَنْكِ الدَّوَلِيِّ، أَمَا التَّيَارَانُ الثَّانِي تَبَنَّى بَرْنَامِجَ الْأُمَمِ الْمُتَّحِدَةِ لِلتَّهْمِيَّةِ وَجَعَلَ الْإِنْسَانَ فِي صُلْبِ الْعَمَلِيَّةِ التَّهْمِيَّةِ، وَيُمْكِنُ الْقَوْلُ أَنَّ مَفْهُومَ التَّهْمِيَّةِ الْبَشَرِيَّةِ تَبَلَّوَرَ بِشَكْلِ كَامِلٍ فِي مَطَلَعِ السَّبْعِيْنِيَّاتِ مَعَ إِصْدَارِ سَلْسَلَةِ تَقَارِيرِ التَّهْمِيَّةِ الْبَشَرِيَّةِ مِنْ طَرَفِ بَرْنَامِجِ الْأُمَمِ الْمُتَّحِدَةِ لِلتَّهْمِيَّةِ، وَأَصْبَحَتْ تُعْرَفُ بِأَنَّهَا عَمَلِيَّةٌ تَوْسِيعُ خِيَارَاتِ النَّاسِ مَعَ التَّرْكِيزِ عَلَى ضَرُورَةِ تَحْسِينِ الْمَعْرِفَةِ وَتَوْفِيرِ حَيَاةٍ طَوِيلَةٍ وَصَحِيَّةٍ لَهُمْ، أَمَا الْمَرِحَلَةُ الثَّلَاثَةُ فَقَدْ كَانَتْ التَّهْمِيَّةَ الْبَشَرِيَّةَ مَرْتَبِطَةً بِمَا يُسَمَّى بِالتَّهْمِيَّةِ الْمُسْتَدَامَةِ الَّتِي تَسْتَدْعِي وَجُودَ تَوَازُنٍ بَيْنَ السَّكَّانِ مِنْ نَاحِيَةِ وَالْمَوَارِدِ الْمُتَّاحَةِ لَهُمْ مِنْ نَاحِيَةِ أُخْرَى.

- ثالثًا: نظريات التنمية: شهد الفكر الاجتماعي التقليدي الكثير من الإرهاسات والإسهامات المتنوعة مهَّدت لتبلور الفكر التنموي حتى ظهرت الكثير من النظريات المرتبطة به مثل:

أ- النظريات التطورية: وتقوم على أن المجتمعات تتغير من الشكل الساذج إلى أشكال أكثر تعقيداً في خط مستقيم وأن كل

ونظراً إلى أن النظريات الأولى للتنمية غلبت الجانب الكمي اليميني على الجانب الكيفي فقد تَكشَّفتُ النَّتَاجُ الْعَمَلِيَّةُ الْبَاسِئَةُ لِاتِّبَاعِ تِلْكَ التَّوَجُّهَاتِ، لِذَلِكَ زَادَتْ تَجَارِبُ التَّهْمِيَّةِ وَنَظَرِيَّاتِهَا وَلَكِنْ لَمْ تَكُنْ نَتَائِجُهَا نَاجِحَةً كَمَا هُوَ مُتَوَقَّعٌ، الْأَمْرُ الَّذِي أَوْجَدَ جِدْلًا مُتَّصِعًا حَوْلَ نَظَرِيَّاتِ التَّهْمِيَّةِ وَمَدَى تَأْثِيرِهَا؛ فَافْرَزَتْ حَرَكَةٌ نَقْدِيَّةٌ تَجَاهُ فِكْرِ التَّهْمِيَّةِ سَنَعْرُضُهَا فِي هَذَا الْمَقَالِ وَفَقًّا لِلآتِي:

أولاً: الظروف التاريخية لظهور دراسات التنمية: تغيَّرَ مَفْهُومُ التَّهْمِيَّةِ عِبْرَ الْوَقْتِ حَتَّى صَارَ مَحَلًّا لِلنَّقَاشِ مِنْ قَبْلِ ثَلَاثِ فَنَاتٍ رَئِيسِيَّةٍ هِيَ:

- الحكومات والمنظمات الحكومية والأفراد في العالم الثالث.

- الوكالات الدولية مثل وكالات الأمم المتحدة المختلفة.

- الأكاديميون في العالم المتقدم.

- إنَّ مَعْظَمَ مَا تَمَّ نَشْرُهُ حَوْلَ التَّهْمِيَّةِ كَانَ يَأْتِي مِنَ الْفَتَّيْنِ الْأَخِيرَتَيْنِ؛ لِهَذَا كَانَتْ غَالِبِيَّةُ الرُّؤْيِ الْمَطْرُوحَةِ يَشُوبُهَا التَّحْيِرُ، وَمِنْذُ نَهَايَةِ الْحَرْبِ الْعَالَمِيَّةِ الثَّانِيَّةِ اِهْتَمَّ الْعُلَمَاءُ وَصُنَّاعُ السِّيَاسَةِ بِمَعْرِفَةِ أَسْبَابِ فِقْرِ بَعْضِ الْبُلْدَانِ أَكْثَرَ مِنْ غَيْرِهَا؛ لِهَذَا وُلِدَ مَجَالُ التَّهْمِيَّةِ الَّذِي تَطَوَّرَ فِي مَسَارِينِ أَحَدُهُمَا اسْتَهْدَفَ الْعُلَمَاءُ فِيهِ جَعَلَ التَّهْمِيَّةَ حَقْلًا جَدِيدًا وَمَحُورِيًّا فِي مَعْظَمِ فُرُوعِ الْعُلُومِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ، أَمَا الْمَسَارُ الْآخَرُ فَقَدْ بَدَأَ فِيهِ السَّاسَةُ وَالْمَوَاطِنُونَ لِخَلْقِ مَبَادِرَاتٍ جَدِيدَةٍ تُعَزِّزُ التَّغْيِيرَ الْاجْتِمَاعِيَّ الْإِيجَابِيَّ مِنْ خِلَالِ الْعَمَلِ كِإِعَادَةِ بِنَاءِ أَوْرُوبَا بَعْدَ الْحَرْبِ وَالتَّقْلِيلِ مِنْ بُؤْسِ الدَّوَلِ النَّامِيَّةِ وَعَلَيْهِ سَارَ اللَّاعِبُونَ الْكِبَارُ وَفَقًّا لِهَذَا الْمَسَارِ كَمُنْظَمَاتِ الْأُمَمِ الْمُتَّحِدَةِ، وَهَكَذَا اتَّجَهَتْ مَفَاهِمُ التَّخَلْفِ وَالتَّهْمِيَّةِ فِي مَرِحَلَتِهَا الْجَدِيدَةِ مُرَكَّزَةً عَلَى الْجَانِبِ الْاِقْتِصَادِيَّ، بَعْدَهَا أَصْبَحَتْ التَّهْمِيَّةُ تَتَّضَمَّنُ عِدَدًا مِنَ الْمَرَاكِلِ الْمُتَّبَاعَةِ الَّتِي يَتَعَيَّنُ عَلَى جَمِيعِ الدَّوَلِ الْمُرُورِ بِهَا مِمَّا أَدَّى إِلَى ظُهُورِ الْأَفْكَارِ السُّوسِيُولُوجِيَّةِ بِوُضُوحٍ فِي كُلِّ مَنْ نَظَرِيَّةَ التَّهْمِيَّةِ وَمِمَارَسَةَ التَّهْمِيَّةِ بِوَاسِطَةِ نَظَرِيَّةِ التَّحْدِيثِ الَّتِي دَعَا فِيهَا مَنَاصِرُهَا إِلَى تَصْدِيرِ الْأَمْوَالِ وَالتَّكْنُولُوجِيَا وَالتَّلْعِيمِ الْغَرْبِيِّ إِلَى الدَّوَلِ الْفَقِيرَةِ لِتَنْمِيَّتِهَا؛ غَيْرَ أَنَّ ذَلِكَ لَمْ يَحْدِثْ بَلْ زَادَتْ تَبَعِيَّةَ هَذِهِ الدَّوَلِ لِلسُّوقِ الرَّأْسِمَالِيِّ الْعَالَمِيِّ فِي الْخَمْسِيْنِيَّاتِ وَالسَّبْعِيْنِيَّاتِ حَتَّى ظَهَرَتْ أَصْوَاتٌ تُنَادِي بِانْضِمَامِ هَذِهِ الدَّوَلِ إِلَى الثَّوْرَةِ الْاِسْتِرَاكِيَّةِ، كَمَا دَعَا آخَرُونَ إِلَى قِيَامِ هَذِهِ الدَّوَلِ بِتَّهْمِيَّةِ اِقْتِصَادِهَا الصَّنَاعِيِّ لِتَحْسِينِ وَضْعِهَا.

- وفي بداية الثمانينيات بدأ واضحا تراجع اهتمام الدول بالبعد